

من صفات المؤمنين في القرآن الخشوع في الصلاة

جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن النبي ﷺ قال: لقد أنزل عليّ عشر آياتٍ من أقامهن دخل الجنة .

عباد الله: كُلُّنا يُحِبُّ الجنةَ وَيُحِبُّ سَماعَ ذِكْرها وَيُحِبُّ دُخولَها، فما تلك الآيات التي من أقامهنَّ وجعلهنَّ مَنهجاً لِحِياتِه والتزم بهنَّ، كان من الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون؟. تلك الآيات ذكرها الله جل وعلا في مَطَلعِ سورة المؤمنين بقوله: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وعدُّ صادق، وإقرارُ أكيد بفلاح المؤمنين، وعدُّ من الله الذي لا يُخلف وعده، وقرارُ من الله الذي لا يملك أحدٌ رده. الفلاحُ في الدنيا والفلاحُ في الآخرة. فلاحُ الفردِ المؤمن وفلاحُ الجماعةِ المؤمنة وفلاحُ المجتمعِ المؤمن، الفلاحُ كلُّ الفلاحِ ادخره الله لعبادِهِ المؤمنين. فمن هم المؤمنون الذين كَتَبَ اللهُ لهم هذه الوثيقة ووعدهم هذا الوعد وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان؟. من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض، والمكتوب لهم الفوز والنجاة والثواب والرضوان في الآخرة؟. من هم المؤمنون الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون؟. إنهم هؤلاء الذين بينَ اللهُ صفاتهم بعد آية الافتتاح:

١. الذين هم في صلاتهم خاشعون.

٢. والذين هم عن اللغو معرضون.

٣. والذين هم للزكاة فاعلون.

٤. والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم..

٥. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

٦. والذين هم على صلاتهم يحافظون.

هذه الصفات ترسم شخصية المسلم، وتُبين ما يجب أن يكون عليه المسلم، وخير قدوة لنا في امتثال هذه الصفات رسولُ الله ﷺ الذي أدبه ربُّه فأحسن تأديبه. سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. ثم قرأت "قد أفلح المؤمنون" حتى "الذين هم على صلاتهم يحافظون". وقالت: هكذا كان رسول الله ﷺ. فإنا من أردت الفلاح والنجاح والسعادة في الدارين عليك بهذه الصفات، يا من أردت أن تكون من أتباع محمد ﷺ في الدنيا ويكون لك شافعاً في الآخرة التزم هذه الصفات.

وأول هذه الصفات، والتي سنعيش في ظلها اليوم، صفة الخشوع في الصلاة (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ): فالصلاة، يا عباد الله، وسيلة من وسائل تزكية النفس، وبها يُظهرُ المسلمُ عبوديته لله. وبقدر ما تؤدي الصلاة على كمالها فذلك علامة على أن النفس مُزكاة وأنَّ القلب طاهر. فالصلاة بسجودها وركوعها وأذكارها تُطهر النفس من التكبر على الله، وتُذكر النفس بالاستقامة على أمره. يقول جل وعلا: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ). قد يتبادرُ إلى أحدهنا سؤال فيقول: أنا أصلي من زمن طويل ولم أنته عن الفحشاء والمنكر. فأقول: إنَّ العلة والمشكلة فيك وليست في الصلاة. فالصلاة إذا أُقيمت بأركانها وسُننها والتزم صاحبها بآدابها الظاهرة والباطنة، ومن آدابها الظاهرة أداؤها كاملةً بالجوارح، ومن آدابها الباطنة الخشوع، فإذا أُديت الصلاة بهذه الطريقة كان لها الدور الأكبر في تطهير القلب، وتزكية النفس والتخلق بالأخلاق الحميدة.

عباد الله: حذرنا نبينا ﷺ من فقدان الخشوع في الصلاة، فجاء في الحديث الذي رواه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع.

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أول علم يُرفع من الناس الخشوع، توشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه خاشعاً. ففقدان الخشوع يعني فساد القلب وفساد الحال، يقول ﷺ: إن في الجسد مُضغعة إذا صَلَّحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب. فالخشوع محله القلب، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح كلها لخشوعه، فإن الأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه، وتفسد لفساده. ولهذا لما رأى سعيد بن المسيب رحمه الله رجلاً يعبث في صلاته قال: "لو خشع قلبُ هذا خشعت جوارحه". فراقب نفسك حتى يخشع قلبك واحذر أن تكون ممن فُقد الخشوع من قلبه فأصبح قلبه كالببيت الخرب، فإن فقدان الخشوع يعني فقدان القلب لحياته.

أسأل الله جل وعلا أن يرزقنا صلاة ذات خُشوع وخُضوع.

أقول قولي واستغفر الله لي ولكم فيا فوز المستغفرين استغفروا الله

سأذكر بعض النقاط التي ينبغي عليك استحضارها في قلبك عند كل ركنٍ أو شرطٍ أو كل عملٍ من أعمال الصلاة. يا من كنت تُريد الآخرة، يا من كنت تُريد الخشوع في صلاتك وتكون من ورثة جنة النعيم:

١. النقطة الأولى: هب أنك تريد أن تقابل مسؤولاً في الدولة، سواء كان محافظاً أو ملكاً أو وزيراً، أعتقد أنك ستستعد وتهيئ نفسك لهذه المقابلة قبل وقتها بشهر، وتفكر أي نوع من العطور أضع؟ أي ثياب ألبس؟ وأي لون أختار؟ وماذا سأحدث معه؟ وكم وكم من التجهيزات. وإذا جاء اليوم المعلوم والوقت المحتوم يرتجف قلبك وترتعد فرائسك وتقف أمامه خاشعاً ذليلاً كالعصفور الصغير، وهو بشرٌ مثلك مثله يتصف بالنقص، يأكل ويشرب يشبع ويجوع ويفرح ويحزن، يدخل إلى الغائط ويعتريه المرض، خُلق من نطفة مزررة وآخره جيفةٌ قذرة وهو بين هذا وذاك يحمل في جوفه العذرة، وتنتنه عرقه، تؤذيه بقعة، تقتله شرقة والقبر ينادي عليه: يا ابن آدم أنا بيت الوحدة أنا بيت الغربة أنا بيت الدود أنا بيت التراب. هذا بشرٌ مثلك مثله تستحضر عظمته في قلبك والأجدر بنا أن نقف بين يدي الله جبار

السّموات والأرض ذاك الإله العظيم الذي خلقنا في أحسن تقويم، إنه وحده سبحانه من يستحق أن نقف بين يديه خاشعين خاضعين خائفين راجين، هذا الخالق هو الذي خلقك في أحسن تقويم. تأملوا في أنفسكم، تأملوا في هذه المفاصل، في السمع والبصر، خلق السموات بغير عمد ترونها جعل فيها الكواكب النيرات، والنجوم الزاهرات، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وجعل فيها الجبال الشامخات والسهول والأوعار والشجر والثمار وخلق فيها الحيوان على شتى أصنافه. وما أجمل قول الشاعر في هذا المقام:

والشمسُ والبدْرُ من أنوارِ حكّمته والبرُّ والبحرُ فيضٌ من عطاياه

الطيرُ سبحةُ والوحشُ مجده والموجُ كبرهُ والحوثُ نجاهه

والناسُ يعصونه جهراً فيسترهم والعبدُ ينسى ربي ليس ينساه

هذا الإله الكريم والخالق العظيم الذي تقف بين يديه في صلاتك، ينبغي عليك عند كل شرط وعند كل ركن أن تستحضر عظمته وكبريائه ويسكن ويخضع قلبك لجلاله وكبريائه. ومن الأمور التي تُعينك على الخشوع:

إذا سمعت صوت المؤذن أو حضر وقت الصلاة: فاستحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وسارع في إجابة المنادي للصلاة، فإن المسارعين إلى النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر. فإذا كان قلبك يمتلأ بالفرح والسرور والاستبشار عند سماع النداء "حيّ على الصلاة" "حيّ على الفلاح" فاعلم أنه سيأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء. لذلك كان يقول ﷺ: *أرحنا بها يا بلال*. وقال: *جعلت قرّة عيني في الصلاة*.

ثم بعد سماع الأذان: لا بد من الطهارة. والطهارة شرطٌ من شروط الصلاة. طهارة البدن والثوب والمكان. وهذه طهارة ظاهرة فإذا طهرت ظاهره فلا تنسى أن تطهر باطنك، لا تغفل عن تطهير قلبك عند كل وضوء، طهر قلبك من الحقد

والحسد والغيرة، طهر قلبك بالتوبة والندم فهو موضع نظر الله. ومن شروط الصلاة ستر العورة. ومعنى ذلك تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق. لو تصور الإنسان نفسه أو منظره دون لباس لكان منظرًا قبيحاً لذا قال الله جل في علاه: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ). فالمسلم أثناء صلاته يستر عورته الظاهرة وهي موضع نظر الناس إليه. فإذا سترت عورتك الظاهرة فلا تنسى أن تستر عورات باطنك وفضائح سرائرك الذي لا يطلع عليها إلا ربك جل وعلا. فاستحضر تلك الفضائح في بالك، استحضر تلك الكبائر التي ارتكبتها، استحضر تلك الذنوب التي عندما تذكرها تضرب على رأسك وتقول كيف فعلتها؟، استحضر كل هذا واستر على نفسك ولا تحدث بها إلا من لا تخفى عليه خافية، واطلب منه أن يسترها في الدنيا وأن يغفرها في الآخرة. ومغفرتها تكون بالندم والحياء والخوف، وأن تقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء، الذي ندم فرجع إلى مولاه مُنكساً رأسه من الحياء والخوف.

أما استقبال القبلة فهو شرط من شروط الصلاة وهو صرفُ ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله الحرام. فكما أنك توجه وجهك وظاهرك إلى البيت الحرام فلا تنسى أن توجه قلبك إلى الله، وقد شرع لنا نبينا ﷺ دعاء الاستفتاح وأول كلماته قولك: "وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض". وليس المقصود بالوجه الوجه الظاهر، وإنما المراد بالوجه توجيه القلب إلى خالق السموات والأرض. فانظر إلى قلبك أثناء صلاتك هل هو يتوجه إلى الله؟ هل هو مُقبلٌ على فاطر السموات والأرض؟ أم هو متوجهٌ إلى السوق والبيت وشهوات الدنيا.

وأما التكبير: إذا وقفت بين يدي الله وقلت بلسانك: "الله أكبر" فينبغي ألا يكذبه قلبك. فإن كان في قلبك شيء أكبر من الله سبحانه فانه يشهد أنك لكاذب. فإذا دخلت في الصلاة أنس كل شيء خارجها. وإذا قلت: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فاعلم أن الشيطان عدوك، ومترصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً

لك على مُناجاتك مع الله جل وعلا وسجودك له وهو يريد سرقة صلاة فانتبه لذلك وحافظ على صلاتك بالخشوع فيها.

عباد الله: لو أردنا أن نتحدث عن كل أركان الصلاة وسُننها وما نستحضره أثناء ذلك لحتجنا إلى جُمعٍ عديدة. ولكن أقول أن صفة الخشوع في الصلاة من صفات المؤمنين الأخيار الأتقياء والأبرار. فأحرص عندما تبدأ صلاتك أن تستحضر بين يدي من تقف؟ وعندما تقرأ القرآن تأمل في كل آية تقرأها أو تسمعها من الإمام وفكر في معانيها. كان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: **(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ)** اضطرب حتى تضطرب أوصاله. وكان النخعي إذا مرَّ بمثل قوله تعالى: **(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)** يخفض صوته كالمستحيي أن يذكره بأي شيء لا يليق به سبحانه وتعالى. قال بعض السلف: الصلاة كجارية تُهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يُهدى إليه جارية أشلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد أو الرجل أو مريضة، أو جارية ميتة بلا روح. والصلاة هدية العبد لربه، والله طيب لا يقبل إلا طيب، وليس من العمل الطيب صلاةٌ لا روح فيها، صلاةٌ لا خشوع فيها. وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد. وابن الزبير كأنه عود. وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة. فقيل له: كيف تصبر؟ قال: بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور، وأنا بين يدي ربي، أفلا أصبر على ذباب يقع علي؟.

اللهم ارزقنا درجات الخاشعين، واجعلنا منهم وارزقنا جوار نبيك سيد الخاشعين

في أعلى عليين

والحمد لله رب العالمين